الحلقة الأولى

بداية التعارف مع الأندلس

وكانت الحلقة الأولى من هذا الحوار عن كيف تعَرَّفَ مفكرنا الكبير على الأندلس منذ طفولته المبكرة ، فأجاب : « جرتنا أقدامنا مع مجموعة من الأطفال يلهون إلى حديقة متميزة فى قلب القاهرة « حديقة الأندلس » ، وكانت من الروعة آنذاك بمكان ومن الجمال وتنسيق الألوان ما يجعلها ترسب فى الذاكرة ، وتترسَّب فى اللاشعور بين تصانيف ما هو محبَّب ومرغوب بالنسبة للطفل ، ومن ثَمَّ كان التردد عليها فى المناسبات والأعياد ... » ثم جاءت مرحلة التعليم وتحولت هذه التسمية لحديقة غنَّاء فى قلب القاهرة لتعطى حقبة متميزة بمضامينها التاريخية ، وكان للتسمية وقع ، ولِمَ لا ؟ إيقاع ، وحينما تعرفنا فى سنوات الدراسة على هذا الأندلس .

كانت التسمية بحق اسم على مسمى فيما قُدِّم لنا فى إطار التمدرس من معلومات ، وإن كانت محدودة ، إلاَّ أنها كانت مثيرة وجذابة ، فالأندلس هو امتداد لنا خارج قارتينا الجذور والمحور ، آسيا وإفريقيا ، امتداد مشرق جمع بين قُدرة الإنسان العربى المتطلع الواعى بقناعاته ورسالته التاريخية ، وبين رسالته الروحية الإسلامية الخالدة ، فهو حامل لواء العقيدة ، وحامل مشعل الحضارة والتنوير ، حضارة أثرت البَشرية بما قدَّمت من مُثل عليا ، وما نفذَّت من عمران وإبداع وابتكار فى مختلف دروب المعرفة .. فناً وأدباً وعلماً .

وهكذا رأينا الأندلس ، أندلس القادة المتبصرين والواعين برسالتهم الدينية والحضارية ، وأندلس العلماء والفقهاء ، والفلاسفة ، والمتكلمين ، أندلس الشعراء ، والأدباء ، والكُتَّاب ، ولِمَ لا ؟ الفنانين والموسيقيين ، هذا البناء الحضارى الشامخ جذبنا إليه فى إشراقه وفى معاناته ، لذا حينما استقر بنا

المقام فى باريس ، لم تشغلنا اهتماماتنا بالعلوم الإنسانية وبتخصصنا وما حوله أن نتزاحم فضولياً بين المتزاحمين على محاضرات أساتذة الأندلسيات ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نذكر « لفى بروفانسال » المستشرق المتخصص فى الأندلس ، وليس بغريب أن يهتم « لفى » بأندلسنا ، فقد كان رحيماً وعطوفاً بالنسبة لأجداده .

ففى الوقت الذى كانت تُنصب المحارق فى أيام الآحاد بعد الصلوات لتصيد اليهودى التائه وحرقه فى الميادين العامة فى أوروبا الوسيطة لتأكيد لعنة المسيح عليه السلام ، كان الأندلس يحتضن بين جنباته الرحيمة ، هذا اليهودى الحائر والذى شخَّصه فى كتابه المعروف ابن ميمون الأندلسى ، « **دلائل الحيران** » **أو « الحائرين »** ، كُتِبَ بالعربية والعبرية واللاتينية . لقد كان « ابن ميمون » كغيره من يهود الأندلس ، لا ينعمون فقط بالراحة والاطمئنان والطمأنينة والأمن والأمان ، وإنما يبحثون وبكل حرية عن هويتهم ، ويفكرون ويكتبون ، بل ويساهمون فى أنشطة الأندلس وفى مختلف دروب المعرفة ، يتولون المناصب ، فضلاً عن ممارستهم للمهن والحِرف الأخرى .

وقد كان من الطبيعى أنَّ أفول الأندلس كان بالنسبة لهم أيضاً أفول عصر تمتعوا به ونعموا ، وبالتالى فضَّل جانب كبير منهم أن يرحل مع الراحلين بعد الأفول ، كما أنَّ البعض الآخر سهر على ترجمة ما وصل إليه من حضارة الأندلس العملاقة إلى اللاتينية إلى جانب لغتهم العبرية ، والشىء بالشىء يُذكر ، ما دمنا بصدد هذه اللمحة عن اليهودية التى أفرزت اهتمام « لفى بروفانسال » بالأندلس ، أن اليهودى التائه ما عرف طريقه إلى القدس بعد أن صُفِّىَ حضوره مع بناء كنيسة القيامة وحُرِّم عليه أن يطأ بقدميه أرض القديسين من قِبَلِ الكنيسة ، عاد تحت راية الإسلام من الأندلس ليزور القدس ، بل وليستقر فيها رويداً رويداً كأسر يهودية محدودة بدأت تتكثف عبر القرون وتتسع لا لتتقاسم الأرض الطيبة مع أهلها كضيوف ، وإنما لترد الجميل فى القرن العشرين بطريقة لا تتمشى بل ولا تتفق مع أبسط المبادىء الإنسانية وروح الوفاء .

ومع هذا يعتبر اهتمام « لفى بروفانسال » بأندلسنا ، كاهتمام مَن حاول من اليهود ، أن يخفف من جرم القطيعة والنكران ، يستحق الإشارة والملاحظة . ومن هذا الموقع الفكرى المتعاطف مع الأندلس والمكتشف له والمتكشف على ذخائره وعطاءه ، كانت الرغبة التى تنتظر الظروف المواتية لتتحقق - ونعنى بذلك التعرف على الأندلس فى عين المكان - أو بعبارة مباشرة ما تبقى منه كآثار تشهد بأن الإنسان مهما تنكر فى لحظات العنف والانفعال والقطيعة لا يمكن بحال أن يبطل أو يزيل ما علق بذاكرة التاريخ وما تشهد به هذه الآثار ، رحل الأندلسيون من أندلسهم ، ومع هذا ما استطاع مَن أرغمهم على الرحيل أن يمحو آثارهم وإنما عاد ليتغنى بها ، ولكن بطريقته ، مفتخراً بما تم بها من إنجازات لا يمكن أن تُعزل عن تاريخه العام .

ذهبنا إلى هذا الأندلس فى بداية الخمسينات ، وجُلْنا مع الجائلين الأماكن التى حملتها إلينا كمسيمات الكتب التاريخية ، وبحق كان الانطباع الأول والتلقائى : أن الأندلس أكبر بكثير مما قُدِّم عنه عبر قنوات التاريخ والرصد ، بلا شك هذا الأندلس العملاق إن كان يشهد لمن بناه بشهادة العبقرية والإبداع والعطاء ، فإنه وبالضرورة ، يشهد على مَن أضاعه إلى أى حد كان قاصراً فى وعيه ، مجازفاً وشخصانياً فى طموحاته ، لا مبالياً فيما سيخطه التاريخ بالنسبة لجرمه وخطيئته . حيا الله أبطال الأندلس .

هكذا كانت مشاعرنا فى ركن منزوى من أركان قصر الحمراء بغرناطة ، وكان الوقت غروباً ، واستعدنا فى الذاكرة حركة القصر وما كان يغص به ساعة أمجاده من حياة وازدهار ، أيمكن أن يجول فى ذاكرة مَن عاشوا آنذاك من الأجداد فى لحظات النشوة والانبهار أنه سيأتى زمن يجلس فيه حفيداً من أحفادهم غريباً فى داره ، يتساقط الدمع من عينيه على أطلاله ، حقاً ما قاله سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (١) . أو كما قال أبو البقاء الرندى فى قصيدته الحزينة فى بداية الأفول :

---

(١) آل عمران : ١٤٠

لكل شيء إذا ماتم نقصان فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسان

..... إلى آخر القصيدة .

وتحاملنا لنقف تاركين المكان .. فلسنا فيه أكثر من سائحين ، فلقد أذن بقفل أبوابه من سدنته ، وكنا آخر مَن خرج منه ، وعبر نزولنا من هذه القلعة الشامخة جالت فى الذهن أحداث وأحداث ، وتساؤلات وتساؤلات .. كيف حدث هذا ؟ كيف تحوّل صاحب الدار إلى غريب فيه ؟ وكيف تحوّل الغريب إلى صاحب الدار ؟ إنها قضية فى أبعادها المعمقة من اختصاص المختصين والمتخصصين ، مؤرخى تاريخ الأندلس والمتصدين لعلميته وفلسفته ، باحثين عن ثوابته التاريخية وقائع ، وأحداث وعن علِيَّة سقوطه ، أما نحن فنكتفى من « فردوسنا المفقود » بدروس وعِبَر نستخلصها ، نعيش فى عصر تتكالب فيه الأمم كما تتكالب الأكلة على قصعتها ، كل يريد أن يستحوذ على نصيب الأسد .

وكان قدرنا اليوم كقدرنا الأمس فى قلب المواجهة والتحدى ، فقد فرض علينا موقعنا الجغرافى من ناحية ، وتحكمنا كأمة فى الممرات البحرية من مضيق جبل طارق مروراً بقناة السويس وبقية الممرات البحرية الأخرى ، فضلاً عن تحكمنا فى أهم مصدر من مصادر الطاقة .. وأن أرضنا أرض النبوّات ومهد الحضارات ... كل هذا جعل الطامعين لا يكتفون منا بالقليل ، وإنما هل من مزيد ؟ أُخِذَ ما أُخِذ وها نحن اليوم ندافع وبإصرار عما تبقى ، ومن هذا الموقع يمكن أن يتصدر من جديد « الفردوس المفقود » الأندلس ، ليملى علينا بعض الدروس من مأساته لعل فى ذلك ما يكون عظة لكل مجازف ، عظة لنا ولغيرنا ، ولِمَ لا ؟ عظة لكل مَن تعمى بصيرته بأنانية ذاتية وشخصنة معتمة ليَضيِّع باسم الدفاع عن بقاء ذاته مصير أُمته ، وهو واع أن ذاته فى الواقع هى ذات أُمته ، وأن لابقاء له بدونها .

ما أروع هؤلاء ؟ ، وما أتعس هؤلاء ؟ ما أروع هؤلاء القادة ممن اختاروا فى اللحظات الكبرى المصيرية أن يضحوا أو يستشهدوا لتبقى الأُمة ، فبقيت وأبقت عليهم كنبراساً ورمزاً خالداً يستشهد به ويفتخر ، ومن أجله يستعيد

التاريخ ثقته فى ذاته ، وما أتعس هؤلاء الذين أضاعوا بحسن نية - أو بسوءها - مستقبل شعوبهم ، فكانوا من أصحاب الخسارتين ، فما أشبههم بالحرفيين الذين يعبدون الله على حَرف ، فهم يقودون الأمة على حَرف ، حيث يقول الحق : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (١) .

ومرت الأيام ، بل والسنون .. وها نحن اليوم نعود - ومن خلال هذا الحوار - لنكمل ما جال فى ذاكرتنا ونحن نهبط من قصر الحمراء ، وهو جاثم فى أعلى الربوة ، وننظر إليه من آن لآخر فى هبوطنا ، غير دارين أو متلفظين بما هو أنسب وأدق للتعبير عن مشاعرنا نحو هذا القصر . أنتحسر عليه ونتأسى ؟ أم نعتز به ونفخر ؟ نحيى هذا القصر كثابت من الثوابت التى تعطى لنا مزيداً من الثقة بالذات ، وتملى علينا درساً نعيه من ذاكرة التاريخ ، حتى لا يتحولّ ما هو تحت أقدامنا من أرض وتراب كمعاقل ندافع عنها الآن وبإصرار إلى أرض ينظر إليها أحفادنا - لا قدَّر الله - فى مستقبل القرون نظرتنا إلى قصر الحمراء ، فكفانا أطلالاً نتباكى عليها ، ونستبكى .

فقصر الحمراء من الأولى أن يظل شامخاً كعبرة ودرساً يجرنا الحديث عنه إلى طرح متواضع لمأساته ، مأساة الأندلس ، ولكن قبل أن نتعامل مع فصول المأساة جدير بنا أن نبدأ من البداية لنتحاور أولاً مع أندلسنا المشرق ، وقبله مع مولده وتأسيسه ، وهل يمكن أن نتصيد فى حوارنا عناصر تبرز لنا ما فيه من قلاع للمجد ، وما احتواه من بؤر للضياع ، وهل تتزامن فى مسيرتها التاريخية أم أن بؤر الضياع تناثرت من البداية ، وكان على قلاع المجد أن تغطيها وتزيح عليها الرمال من آن لآخر ، أم العكس كانت قلاع المجد ثم تراجعت وتضاءلت وانكمشت لتتحول إلى بؤر للضياع .

---

(١) الحج : ١١

احتمالات ثلاث سوف نتحاور معها بأسلوب هادىء ، ومبسَّط ومباشر ، تاركين للمختصين والمتخصصين فى هذه الحقبة الغوص فى ممراتها المظلمة وقنواتها المتعددة ، فمن البداية نكررها ، لسنا بصدد وضع تاريخ للأندلس أو إعادة لصياغة أحداثه ، أو تصحيح أو تصويب أو تخطىء أو إضافة أو اكتشاف ، وإنما نجول فى الأندلس بين قلاع مجده وبؤر ضياعه ، لنتعرف على أى الاحتمالات أقرب إلى فهمنا ، هل بدأ الأندلس ببؤر الضياع تاركاً لقلاع المجد أن تظهر بين الحين والآخر فى فيافيه ووديانه ؟ أم العكس ؟ انطلق من قلاع المجد وانتهى ببؤر الضياع ؟ أم تزامنا وتناغما فى كل فترة من فتراته ، تتساكن قلاع مجده مع بؤر ضياعه ؟ ... وحلقتنا التالية نبدأها من البداية .

* * *